رسالة من رومية الى بغداد

في اوائل العصر العاشر

للاستاذ بارتولد عضو الاكديمية بطرسبرج

ظهرت سنة ١٩١٢ في مجلة المستشرقين الايطالية مقالة صغيرة في اللغة الفرنساوية للاستاذ جامعة بطرسبرج ق . انسترانتسف (C. Inostrancev) تحت عنوان « من علاقات رومية بالخلافة العباسية في اوائل العصر العاشر »[1] اتى فيها صاحبها على ذكر الهدايا التي بعثت بها سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٥ — ٩٠٦ م) « ملكة الفرنك » الى الخليفة المكتفي (٩٠٢ — ٩٠٨) واشار الى ما قد يكون لهذا الحادث من الشأن التاريخي

ومما جاء في الرسالة قولها « واني اعلم ما بينك وبين ملك القسطنطينية من المخالفة حتى اني اقوى منهُ وعندي من معدات الحرب اكثر مما عنده وتحت سلطتي ٢٤ [2] مملكة لا يشبه لسان احداها لسان الاخرى ورومية الكبرى باجمعها تخضع لي »

يظهر ان ادلّة الاستاذ التي اوردها ليدل بها على ان « ملكة الفرنك » هي تيودورا امرأة تيوفيلكت قنصل وسناطور (عضو في مجلس الشيوخ ب . ج) الرومانيين التي كانت يومئذٍ ترأس حكومة رومية فعلاً متينة لا غبار عليها اذ من المعلوم ان تيوفيلكت وامرأته كانا حقيقة يرأسان رومية في ايام البابا سرجيوس الثالث (٩٠٤ — ٩١١) ولقد اصاب ايضاً الاستاذ حين قال انهم بالغوا كثيراً في المكانة السياسية التي نسبوها الى تيودورا في الرسالة التي بعثوا بها باسمها

اخذ صاحب المقالة خبر الرسالة من مجموعة آداب عربية (مُلح ادبية) لكاتب من اصل بربري كان يقيم في دمشق ويدعى علاء الدين البهائي الغزولي[3] الدمشقي (توفي سنة ٨١٥هـ)[4] وهذا — على قدر ما نعلم — المصدر الوحيد الذي كان يومئذٍ معروفاً ولهذا لم يكن لصاحب المقالة الاّ ان يفترض أن الغزولي (وهو من الكتبة المقلّدين) استقى هذا الخبر من مصدر اقدم

---

(١) C. Inostrancev, Note sur les rapports de Rome et du Califat Abbasside au commencement du X Siécle. Rivista degli Studi Orientali IV, 1911—1912, 81—86

(٢) راجع كلام ياقوت الحموي ٢ : ٦٨٩ عن ٢٤ كنيسة من اعظم كنائس رومية وياقوت اخذ روايته عنه عن ابن الفقيه الذي وقع فيها تحريف عند اختصارها (انظر Bibl. Geogr. Arab. V, 150, 10 والحاشية g)

(٣) راجع عنه كتاب Brockelmann « تاريخ الآداب العربية » ٢ : ٥٥ وعن الرواية التي اوردها الاستاذ تاريخ الغزولي المطبوع في القاهرة ج ٢ : ١٣٥

(٤) يظهر ان صاحب المقالة سها حين قال ان الغزولي « كان من كتبة العصر الثالث والرابع عشر »

واني انا ايضاً كنت ذكرت في مقالتي عن « العلاقات بين الفرنك والمسلمين » التي نشرتها سنة ١٩١٥ في مجلة « المشرق المسيحي » الروسية ان خبر هذه الرسالة لم يرد الاَّ في مجموعة آداب عربية يرجع عهدها الى العصر الرابع عشر او الخامس عشر[1] وما ذلك الاَّ لاننا كلانا لم ننتبه الى ان الرسالة ذكرت لاول مرة في مصدر قديم — من العصر العاشر — يعرفهُ كل من يشتغل بالعلوم العربية وهو كتاب الفهرست لابن النديم (في باب حروف الهجاء)[2] حيث قيل عن حروف الهجاء عند الفرنك اي عن الحروف اللاتينية ما نصهُ « وحروفهم تشبه حروف اليونان الاَّ انها احسن منها لانها اكثر استواء فقد رأيناها احياناً على سيوف الفرنك وكَتَبَتْ ملكة الفرنك كتاباً الى (الخليفة) المكتفي على حرير ابيض وارسلتهُ مع خادم (اي خصي) قَدِم الى املاكها من الغرب (من افريقية الشمالية) تطلب من المكتفي مهراً (صداقاً) وتعرب فيهِ عن رغبتها في زواجه واسم هذا الخادم ألبا — (?) Alba وهو من خدام ابن الاغلب »[3]

ظاهر من اول نظرة ان الغزولي لم يأخذ عبارته عن الفهرست بل — وهذا هو الارجح — عن مصدر آخر اقدم وأصح في ما يتعلق على الاقل بهذا الخبر لان تيودورا كانت — على قدر ما نعلم ونستطيع ان نحكم — في هذا الوقت امرأة الناطور تيوفيلكت وعليهِ يصعب ان نفرض انها عرضت نفسها على المكتفي كما يصعب ان يكون بلغها شيء اكيد عن الخليفة وانهُ كان شابًّا وجميل المنظر[4] (توفي المكتفي سنة ٩٠٨ وله من العمر ٣١ او ٣٢ سنة)

يؤخذ من عبارات الغزولي ان في رسالة « ملكة الفرنك » مضادة بين بزنطية « ورومية الكبرى » القديمة وهذا محتمل لانهُ يتفق مع وجدان رجال ذلك العصر وميولهم السياسية وان كان صاحب العالم غريغوروثيوس في كلامه عن النقود التي ضربها البابا سرجيوس الثالث وكتب عليها salus patriae (سلامة الوطن) وانها هاجت ذكرى رومية القديمة[5] وعزها السالف . اما ما جاء في الرسالة عن العلاقة (او « الصلة » كما في الرسالة) بين بزنطية والخليفة فهو غير صحيح ولا هو يتفق مع التاريخ في شيء . نعم ان المكتفي وملك الروم ليون السادس تراسلا وتهاديا سنة ٩٠٣ (٢٩١ هـ)[6] الاَّ ان الحرب عادت فنشبت بينهما حتى ان فداء الاسرى الذي كانوا شرعوا فيهِ في ايلول من سنة ٩٠٥ (٢٩٣ هـ) لم يتم لان الروم انصرفوا بغتة بمن كان معهم من اسرى المسلمين فحسب ذلك المسلمون غدراً[7] منهم ولم تتجدد المكاتبة بين

(١) مجلد ٣ ص ٢٦٤ (٢) كتاب الفهرست ص ٢٠ من طبعة اوربا (٣) المراد هنا زيادة الله الثالث آخر امراء الاغلبيين (٩٠٣—٩٠٩) (٤) الطبري ١١ : ٤٠٤ و وكان ربعة جميلا وقيل السكون سمن الشعر وافر اللحية وافر الجلة » و (كتاب الصلة لصريب ص ١٢ ب . ج)

(٥) راجع كتابه Kleine Schriften ١ : ١٦٢ (٦) طالع عن ذلك تأليف الاستاذ هاسيليف « بزنطية والعرب » ٢ : ١٣٢ — (في الروسية) وهناك نجد المصادر

(٧) وقد ذكر ذلك الطبري (١١ : ٣٩٣) والمسعودي في مروجه بعبارات واحدة

البطريق عن التصلح والفداء الا في سنة ٩٠٧ اما الفداء فلم يتم فعلاً الا في سنة ٩٠٨ وذلك في خلافة المقتدر (٩٠٨ — ٩٣٢)

يصعب علينا ان نثبت في هل كان الغرض من رسالة تيودورا الحصول على منافع سياسية معلومة اي انها ارادت كما يفترض الاستاذ صاحب المقالة ان تفوز بمساعدة من الخليفة ضد عرب افريقا الذين كانوا يسطون ويقتلون من مستعمراتهم على شاطىء نهر غاريليانو Gariliano[1] على مقاطعتها الرومانية وينهبون ويقتلون اهاليها وذلك في قبيل مساعدة تقدمها له ضد بزنطية. على انهُ يظهر من رواية الفهرست ان اصحاب رومية لم يكونوا يفكرون في ارسال شخص ذي منصب يتفق مع خطورة مهمته السياسية وانما انتهزت الملكة تيودورا فرصة سفر احد الخدم (الخصيان) الآتين من بلاد الافلبيين[2] الى الشرق لترسل معهُ رسالة الى خليفة بغداد الا اننا لا نعلم هل كان هذا الخادم اسر في احدى المناوشات التي وقعت بين الرومانيين وعرب المستعمرة المذكورة او انهُ هجر اراضي الافلبيين لما اصابه من ولاة الامر فيها كما اننا لا نعلم هل كان يومئذ في بغداد من كان يحسن قراءة وفهم رسالة كتبت باللاتينية او ان الخادم المذكور تولى هذا الامر بنفسه

يدخل في سنة ٢٩٣ الهجرية جميع الوقت الذي يبتدىء من تشرين (تشرين ثاني) من سنة ٩٠٥ م وينتهي في اكتوبر (تشرين اول) من سنة ٩٠٦ والذي نعلمهُ عن هذه السنة ان المكتفي قضاها كلها في بغداد ففي ٢١ ايار[3] (مايو) من سنة ٩٠٦ اخرجت مضاربه من بغداد وضربت في باب الشماسية وهو الباب الشمالي الواقع على الجانب الايسر في بغداد الشرقية ومن هذا الباب كانت تبتدىء الطريق الى العراق وسوريا وقد كان الداعي الى اخراج مضارب الخليفة ان المكتفي كان ينوي الخروج الى سوريا ليقمع الثورة التي ظهرت وقتئذ في مصر الا انهُ ورد في اليوم الثاني خبر انقماع الثورة وان قائد السلطان واصحابه ظفروا بالخليجي زعيم الخارجين على الدولة نهار الاثنين في ٥ ايار (مايو)[4] فعدل الخليفة عن الزحف وردّت المضارب الى مكانها ثم صدر الامر بارسال

---

(١) راجع عن بنائها سنة ٨٨٣ تأليف الاستاذ فيليب المذكور ٢ : ١٣١ وعن تعميرها من طرف الروم والايطاليين في سنة ٩١٦ الكتاب نفسه ص ٢٠٦

(٢) كان بين هدايا « ملكة الفرنك » التي بعثت بها الى الخليفة عشرون خصياً من اجمل خصيان صقلية (وفي الاصل استعملت كلمة خادم وهي الكلمة التي استعملها ايضاً صاحب الفهرست وقد كانت تستعمل في اغلب الاحيان بمعنى الخصي على انها وردت في العصر العاشر بمعناها الاصلي ايضاً (راجع قاموس بعض المفردات الواردة في تاريخ الطبري ص ٢١٥ اما الاستاذ Inostrancev فقد ترجمها بكلمة esclave) (وقد استعملت كلمة خصي بدلا لخادم كقول صاحب كتاب القضاة ص ٢٣٤ : « كان في داره (دار الخليفة المقتدر بالله) احد عشر الف خادم خصي من الروم والسودان » ب . ج)

(٣) « لسبع بقين من رجب » كما يقول الطبري ١١ : ٣٩٨ (٤) الكندي (طبع Guest) ص ٢٦٢

الخليجي الى مدينة السلام فأرسل . ولما وصل اليها ادخره من باب الشماسية للنصف من شهر رمضان (نهار الخميس في ١٠ تموز (يوليو)) أما خروج الاسراء من مصر فقد كان نهار الاثنين في ٢ حزيران (يونيو) ومن هذا الباب دخل ولا شك رسول تيودورا كما كانت تدخل قبله وبعده رسل ملوك الروم

يحتمل ان يكون ورد ذكر رسالة «ملكة الفرنك» في كتاب الوزراء (تأليف ابي عبد الله محمد بن عبدوس — ب. ج.) الجهشياري (توفي في سنة ٣٣١ هـ ٩٤٢ — ٩٤٣ م) الذي وقف فيه — كما يستفاد من كتاب الوزراء لهلال الصابيء — عند سيرة العباس بن الحسن[١] (وزير المكتفي والمقتدر) من سنة ٩٠٤ [٢] الا ان المخطوطة الوحيدة التي وصلت الينا من كتاب الجهشياري والتي نشرت حديثاً[٣] تنتهي بذكر وزراء المأمون (٨١٣—٨٣٣) كما وقد ختمها صاحبها بهذه العبارة : « هذا آخر ما اردناه والله اعلم » مما ينتج عنه ان المخطوطة تحتوي على جميع الكتاب

ترجح ان يكون لعبارة الفهرست « وقد كتبت الرسالة على حرير ابيض »[٤] اشأن خاص بمعرفة حالة الثقافة المادية في ذلك العصر

لم يذكر ابن النديم بصراحة ان كان رأى الرسالة بعينه ام لا ولكنه على كل حال لم يكن في وسعه ان يقرأها لان معرفة اللغة اللاتينية لم تكن شائعة في العالم الاسلامي ما عدا اسبانيا والقسم الجنوبي من ايطاليا حتى ان العرب كانوا — كما تفيدنا بعض الاخبار — يخلطون بين الحروف اللاتينية والحروف اليونانية [٥] الا في اسبانيا كما قلنا فانهُ كان بين العرب من كان يحسن قراءة الحروف اللاتينية مذكر منهم البكري احد جغرافيي الاندلس في العصر الحادي عشر فانهُ كان يقرأ اسماء « الجزائر السعيدة » (او الخالدة ب . ج .) Fortunatal [٦] — باللاتينية وقد شهد له الغزولي بأن كتابه خير التآليف العربية في الجغرافية [٧]

وليس ايضاً بواضح ان كان « تاريخ الفرنك » الذي قدمه غودمار (Godmar) اسقف مدينة جيرونا (في كاتالونيه هي Gerona في خارطات هذا اليوم و Gerunda القديمة) الى

---

(١) راجع The Historical Remains of Hilal Sabi, ed. Amedros, Leyden 1904, p.

(٢) تسلم من وثائق الكتاب المذكور سابقاً ص ٣٦٠ من المتن . وله العباس بن الحسن سنة ٢٥٠ هـ (٨٠٤ — ٨٦٤ م) ص ٣١٣ من الاصل (٣) راجع Bibliothek arabischer Historiker und Geographen, ed von H. Mzik, Bd.I, 1926

(٤) لم اقف على اخبار اخرى عن رسائل كتبت في ذلك الوقت على حرير ابيض

(٥) راجع مجلة Per Islam م ١٦ ص ٥٥

(٦) راجع كتاب Abu-Obeid-el-Bacri, Description de l'Afrique Septentrionale texte arabe par le Bon de Glane, Alger, صفحة ١٠٤ من الاصل و ٢٤٩ من الترجمة

(٧) الغزولي ٢ : ١٧٧ من المطبعة المصرية سنة ١٢٩٩ — ١٣٠٠ اما تأليف البكري فلم ينشر حتى اليوم

الحكم (٩٦—٩٧٦) يوم كان ولي العهد ، مكتوباً بالعربية ام باللاتينية اذ لم يذكر هذا الكتاب الا المسعودي [١] وقد رآه في القاهرة سنة ٣٣٦ (٩٤٧—٩٤٨) في اللغة العربية على ما يظهر اذ كان الفهم الاصل وضع باللاتينية وقد نبّه Reinaud [٢] الى ان كاتالونيه كانت من عهد شارل الكبير داخلة في حكم القرنك وعليه يكون غودمار الذي ترأس البعثة الى الخليفة المذكور من تبعة الملك لويس (لبودفيك) الرابع المعروف بلويس « ما وراء البحر » (d,outre - mer — ٩٣٦ — ٩٥٤)

ثم لا شك في ان للرسالة شأناً لمعرفة تاريخ رومية في ذلك الوقت اذ نستطيع ان نستنتج منها ان تيودورا كانت سيدة « المدينة الخالدة » بلا نزاع وصاحبة السلطة فيها ليس فقط في نظر معاصريها بل وفي نظر الجيل التالي . زد الى ذلك ان هذه الرسالة التي بعثها « ملكة القرنك » الى بغداد في اوائل العهد المعروف بعهد « حكم العبارة » Pornocratie — (العبارة لبارونيوس من اهل العصر السادس عشر) في رومية تؤكد مرة اخرى رأي بعض المؤرخين في ان النساء اللواتي كنّ يحكمن ويتنفذن في رومية ويُخاطبْنَ بالاحياء ولا خجل مما تقتضيه الآداب المسيحية لم يكنّ من النساء اللاتي لا قيمة ولا شأن لهن كما يصورهن المؤرخون الكنائسيون الذين لم يكونوا يرون فيهن الا بؤرة شر ودعارة

***

ولا بأس ان نلمه اخيراً الى ان كتاب تيودورا أرسل من رومية الى بغداد في زمن لم يكن ظهر فيه بعد نجم مدينة أمالفي [٣] او ان العرب لم ينتبهوا الى ذلك وهذا الزمن يُعَدّ احدى الصفحات الاولى من تاريخ علاقات اوربا الغربية مع العالم الاسلامي مباشرة اي بدون وساطة الدولة البزنطية تلك العلاقات التي مهّدت للبلاد الغربية في اوربا اسباب التفوق على غيرها في ميدان الثقافة والاقتصاد

باكو ب . ج

(١) مروج الذهب ٣ : ٦٩ (من الطبعة الاوروبية)

(٢) راجع كتابه Invasions des Sarrazins en France Paris 1856, XV, 39 p.

(٣) لم يرد ذكر امالفي في كتب العرب قبل النصف الثاني من العصر العاشر (طالع Bibl. Geogr. Arab. II, 135) وراجع عن مستعمرة امالفي التجارية في القاهرة تاليف الاستاذ بارون روزن « تاليوس لتال البلغار » (بالروسية) بطرسبرج ١٨٨٣ ص ٢٩٥